تقديم

يعالج هذا الكتاب "المغرب العربى من خلال خلافة المعز لـدين الله الفـاطمى" لمؤلفه الدكتور/ صالح عمار الحاج .

موضوعا هاما عن شخصية إسلامية غيرت مجرى تاريخ المغرب والمشـرق، تلك الشخصية التى يذكرها التاريخ كلما ورد اسم القاهرة التى بنيت فـى عهـده، وصارت حاضرة الدولة الإسلامية الجديدة، ومقر الحكم الدولة الفاطمية التى كانت أعظم دولة شعبية فى التاريخ الاسلامى، وقد بلغت ذروتها فى عهد المعز الـذى أعز الله به الإسلام والمسلمين .

ويعتبر المعز لدين الله الفاطمى رابع خلفاء الدولة وأولهم فى مصر وحكم لمدة أربع وعشرين عاما استخدم فيها السيف وصندوق الجباية، ولذا لم تشهد بلـدان المغرب خلال العصر الفاطمى بل وعصر المعـز نهضـة فكريـة أو عقائديـة أو عمرانية، وكان كل الذين نشطوا لنشر الدعوة الشعبية غرباء باسـتثناء القاضـى النعمان، وقد سعى الفاطميون إلى تطبيق عقيدتهم بالعنف والتنكيل، ولـيس بـلا قناع والموعظة الحسنة لأنهم افتقروا إلى قوة الإقناع وإذا كان المعز قـد حقـق وحده المغرب الكبير لكنها لم تعش طويلا إلا إنها كانت بادرة فريدة من نوعها لكل الدول صابرت بعد ذلك وخاصته دولتى المرابطين والموحدين وإذا أضفنا إلى ذلك أن فرض التعاون مع الأندلس قد صنعت منذ أوربا برا وبحرا، بل أن المعز ضيع العز منه التى لاحق له بعد معركة تامجاز للبقاء فى الجنوب الايطالى، وقد شـكل ضياع هذا الجزء من المسلمين مقدمة لضياع صقلية، ومع رحيل المعز إلى مصر كانت الأندلس تمر بعصر التحولات الكبرى وظهور دول الطوائـف ، واستشـراء حركة الاستغلاب الصليبية فى الأندلس، والتحضير الفكرى والعقائدى والسياسـى فى أوربا الغربية لبدء الحروب الصليبية الكبرى ضد بلاد الشام .

لقد كان المعز الفاطمى من أعظم الرجال فى تاريخ الفاطمين فى المغرب والمشرق، لكن الشعور بالقداسة والعصمة والتربية الذهبية جعلته يعرف مؤهلاته بالاتجاه المعاكس، والأمر الغريب أن الدعوة الإسماعيلية التى اتسمت بالعالمية لم تنشط فى بلدان أفريقيا، وركزت جهودها فقط على دار الإسلام، وذلك على عكس دولة المرابطين التى وزعت نشاطها على المغرب والأندلس وعلى السودان الغربى لقد انتقل المغرب إلى المشرق فى عهد المعز، ولأول مرة فى التاريخ تم حكم بلدان المغرب كلها من مصر والشام الجنوبى، ولذا صابر عهده بحثا فى التاريخ الاسلامى فى المغرب والمشرق والأندلس وحوض البحر المتوسط، والعلاقات مع أوربا الغربية والشرقية.

لقد حاول مؤلف الكتاب من خلال فصوله السبع الإلمام بهذه الشخصية من خلال الصورة العامة للمغرب الاسلامى والمشرق العربى، حيث درس فى الفصل الأول الأوضاع السياسية فى المغرب الكبير قبل قيام الدولة الفاطمية وهو مدخل هام يوضح أسباب ارتجال المعز لدين الله إلى مصر وترك شئون المغرب لقوة مغربية محلية، وحاول المؤلف فى الفصل الثانى دراسة الدعوة الإسماعيلية حتى وصول الفاطميين إلى السلطة، وفى الفصل الثالث ركز المؤلف على المعز لدين الله الفاطمى ونشأته وتحليل شخصيته بشكل مبتكر حيث سلط الأضواء على ثقافته العامة، ومذهبيته العالقة، وإتقانه فنون العلم الباطنى والتأويل والاعتداد بالنفس، وإيمانه بأنه إمام حق صحيح الانتماء إلى نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم. كما أوضح المؤلف صورة المعز فى المصادر التى عاصرته، وانه كان رجلا حازما عفيفا تقيا، ليست له قصص مع نساء القصر أو مع غلمانه، اى انه رسم صورة واقعية حيادية عن هذا الحاكم دون تحيز لاى رأى.

وفى الفصل الرابع حاول المؤلف دراسة العلاقات مع القوى المحلفة فى بلدان المغرب على عهد المعز لدين الله .

وفى الفصل الخامس ناقش المؤلف العلاقات عبر البحر المتوسط، وركز على جزيرة صقلية التى كانت شبه مستقلة تحت أسرة أل الكلبى التى كانت على علاقة طيبة مع المعز لدين الله.

وفى الفصل السادس ناقش المؤلف عملية استيلاء الفاطميين على مصر، ثم استيلاء ابن فلاح على دمشق، ثم عرج المؤلف إلى الإحداث الشامية، وموقف أهل الشام من جيوش الفاطميين.

وصابر الفصل الأخير ليعطى صورة عن مؤسسات الدولة وابرز العاملين فيها حيث ابرز أن جميع السلطات فى الدولة الفاطمية فى أيدى المعز لان الدولة كانت ثيوقراطية كمحور كل ما فيها حول الإمام صاحب الشخصية المقدسة.

وفى الحقيقة بعد هذا العرض للمغرب العربى من خلال خلافة المعز نجح المؤلف فى عرض هذه الصورة التاريخية بعد جهد كبير، وبعد دراسة موضوعية متوازنة، ولم يغرق أفكاره وسط هذه القلاقل والاضطرابات، بل حاول البعد عن التكرار والتعميم، واستخدام المنهج التاريخى التحليلى والمقارن لكى يحلل الأحداث التاريخية فى أطار من الموضوعية والحيادية التى تقدر فى الدراسات التاريخية الحالية.

لقد نجح المؤلف فى تحليل أسباب اتجاه الفاطمين إلى مصر وأسباب فشل بقاء الفاطميين فى المغرب، تلك النقلة البشرية لقبائل مغربية إلى مصر وبلاد الشام . وهو من الإحداث الفريدة فى التاريخ حيث تحول المغرب إلى المشرق فى سابقة لم يحدث مثلها فى تاريخ المقطعين ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب بملاحقة وخرائطة ليقدم للمكتبة العربية موضوعا هاما ثار حوله نقاش وخلاف كبير لكن نجح المؤلف بحيادتية وموضوعية أن يعطى صورة تاريخية واقعية تحليلية لفترة هامة من تاريخ امتنا الإسلامية.

انه كتاب يقسم بالمنهجية التاريخية، والتحليل الموضوعى، والأسلوب الراجين، والأفكار السلسلة والعبارات البسيطة التى أوضحت ما يهدف إليه المؤلف معتمـــدا على مصادر أولية وأخرى ثانوية فضلا عن عدد كبير من المراجع العلمية التـــى أثرت الكتاب، وجعلته مرجعا لا غنى له لكل من يدرس تاريخ هذه المنطقة فى تلك الفترة الزمنية .

الشكر والتحية لهذا الباحث الذى قدم صورة واقعية وموضوعية فلما نجد لهـــا مثيلا فى الدراسات التاريخية المعاصرة.

والله الموفق وعلى الله القصد

أ.د عبد الله عبد الرازق إبراهيم

أستاذ التاريخ بمعهد البحوث

والدراسات الإفريقية ـ جامعة القاهرة

2004/8/31

obeikandl.com